هند بنت الحارث

هي إحدى جميلات ذلك العصر، وهي التي أوحت إلى عمر عينيته التي قرنها القدماء إلى رائيته وفضلوه بهما على جميل، ولنترك ابن أبي ربيعة يتكلم هذه المرة؛ إذ كان حديثه عن هند يشبه ما يعرف بالاعتراف.

حدث مصعب بن عبد الله، عن عثمان بن إبراهيم الخاطي قال[1]: أتيت عمر بن أبي ربيعة بعد أن نسك بسنين، وهو في مجلس قومه من بني مخزوم، فانتظرت حتى تفرق القوم، ثم دنوت منه ومعي صاحب لي ظريف، فقال: تعال حتى نهيجه على الغزل فننظر هل بقي في نفسه منه شيء؟ فقلت: دونك! فقال: يا أبا الخطاب! لقد أحسن العذري وأجاد فيما قال. فنظر عمر إليه ثم قال له: وماذا قال؟ قال: حيث يقول:

لو جُذَّ بالسيف رأسي في مودتها ... لمرَّ يهوى سريعًا نحوها رأسي[2]

ولو بلي تحت أطباق الثرى جسدي ... لكنت أبلى وما قلبي لكم ناس

أو يقبض الله روحي صار ذكركمُ ... روحًا أعيش به ما عشت في الناس

لولا نسيمٌ لذكراكم يروِّحني ... لكنت محترقًا من حرِّ أنفاسي

فارتاح عمر إلى هذه الأبيات، ثم قال: يا ويحه! أبعد ما يُجذُّ رأسه يميل إليها!

---

(١) ورد هذا الحديث في زهر الآداب ج١ ص٢٢٨، وفي أمالي ج٢ ص٥٠، وفي الأغاني ج١ ص١٧٤. ومع أن المحدث واحد فقد اختلفت العبارات في هذه الكتب الثلاثة، وقد اخترنا ما رأيناه أنسب بالسياق، من غير أن نتقيد بنص بعينه.

(٢) جذ: قطع.

فقلت: ولله در جُنادة العذري! فقال عمر: حيث يقول ماذا ويحك؟! فقلت: حيث يقول:

سرت لعينك سلمى بعد مغفاها ... فبت مستنبهًا من بعد مسراها[1]

فقلت أهلًا وسهلًا من هداك لنا ... إن كنت تمثالها أو كنت إياها

تأتي الرياح التي من نحو بلدتكم ... حتى أقول دنت منا برياها

وقد تراخت بنا عنها نوًى قذفٌ ... هيهات مُصْبحها من بعد مُمساها[2]

من حبها أتمنى أن يلاقيني ... من نحو بليدتها ناع فينعاها

كسيا أقول فراقٌ لا لقاء له ... وتضمر النفس يأسًا ثم تسلاها

ولو تموت لراعتني وقلت لها ... يا بؤس للدهر ليت الموت أبقاها

فضحك عمر ثم قال: وأبيك لقد أحسن وأجاد وما أبقى[3]، ولقد هيجتما عليَّ ساكنًا، وذكرتماني ما كان عني غائبًا، ولأحدثنكما حديثًا حلوًا: بينما أنا منذ أعوام جالس؛ إذ أتاني خالد الخِريت[4] فقال لي: يا أبا الخطاب، مرت بي أربع نسوة قبيل العشاء يردن موضع كذا وكذا، لم أر مثلهن في بدو ولا في حضر، فيهن هند بنت الحارث المرية، فهل لك أن تأتيهن متنكرًا فتسمع من حديثهن، وتتمتع بالنظر إليهن، ولا يعلمن من أنت؟ فقلت له: ويحك! وكيف لي أن أخفي نفسي؟ قال: تلبس لبسة أعرابي، ثم تجلس على قعود فلا يشعرن إلا بك قد هجمت عليهن، ففعلت ما قال وجلست على قعود، فسلمت عليهن ثم وقفت بقربهن، فسألتني أن أنشدهن

---

(١) مستنبه: مستيقظ.

(٢) نوى قذف: بعيدة. ومثلها النوى القذوف.

(٣) في زهر الآداب: أنه لم يهش لهذه الأبيات، وهي فيه منسوبة إلى الفرزدق.

(٤) هو خالد بن عبد الله القسري، وكان يترسل بينه وبين النساء، وكان من أهل العبث في صباه - والخريت على وزن سكيت، هو الدليل الحاذق.

وأحدثهن، فأنشدتهن لكثير وجميل، والأحوص ونصيب وغيرهم، فقلن لي: ويحك يا أعرابي! ما أملحك وأظرفك! لو نزلت فتحدثت معنا يومنا هذا، فإذا أمسيت انصرفت في حفظ الله! فأنخت بعيري ثم تحدثت معهنَّ وأنشدتهن، فسُررن بي وجذِلن بقربي وأعجبهن حديثي. ثم تغامزن وجعل بعضهن يقول لبعض: كأنا نعرف هذا الأعرابي! ما أشبهه بعمر بن أبي ربيعة! فقالت إحداهن: هو والله عمر! فمدت هند يدها فانتزعت عمامتي فألقتها عن رأسي، ثم قالت: هِيهِ يا عمر! أتُراك خدعتنا منذ اليوم! بل نحن والله خدعناك، واحتلنا عليك بخالد فأرسلناه إليك لتأتينا في أسوأ هيئة ونحن كما ترى. ثم أخذنا في الحديث. فقالت هند: ويحك يا عمر! اسمع مني، لو رأيتني منذ أيام وأصبحت عند أهلي، فأدخلت رأسي في جيبي، فلما نظرتُ إلى كعثبي فرأيته ملء العين وأمنية المتمني ناديت: يا عمراه! يا عمراه! فصحتُ: يا لَبَّيكاه! يا لَبَّيكاه! ثلاثًا، ومددت في الثالثة صوتي. فضحكت، وحادثتهن ساعة ثم ودعتهن وانصرفت، فذلك حيث أقول:

ألم تسأل الأطلال والمتربعا ... ببطن حُليَّاتٍ دوارس بلقعا[1]

إلى السرح من وادي المغمَّس بُدِّلتْ ... معالمهُ وبلا ونكباء زَعْزَعا[2]

فيبخلن أو يجبرن بالعلم بعدما ... نكأن فؤادًا كان قدمًا مفجَّعا[3]

لهند وأتراب لهند إذ الهوى ... جميعٌ وإذ لم نخش أن يتصدعا[1]

وإذ نحن مثلُ الماء كان مِزاجهُ ... كما صفَّق الساقي الرحيق المُشَعْشعا[2]

---

(١) المتربع: منزل القوم في الربيع -حليات: اسم موضع قرب مكة -دوارس جمع دارس وهو البالي - بلقع: قفر.

(٢) السرح: اسم موضع -والمغمس: موضع قرب مكة في طريق الطائف، مات فيه أبو رغال وقبره يرجم؛ لأنه كان دليل أبرهة صاحب الفيل -الوبل: المطر -النكباء: الريح التي تنكب عن مهاب الرياح -وريح زعزع: شديدة، وكذلك زعزاع وزعزوع.

(٣) نكأ الجرح: أدماه من جديد، ونكأ القلب: أضرمه بالحب قبل أن يخبو به الوجد.

وإذ لا نطيع الكاشحين ولا نرى ... لواشٍ لدينا يطلب الصَّرم موضعا[٣]

تنوعتن حتى عاود القلب سُقمهُ ... وحتى تذكرت الحديث المودَّعا[٤]

فقلت لمطريهن بالحسن إنما ... ضررت فهل تستطيعُ نفعًا فتنفعا[٥]

وأشريتَ فاستشرى وقد كان قد صحا ... فؤادٌ بأمثال المَهَا كان مُوزعا[٦]

وهيَّجت قلبًا كان قد ودَّع الصِّبا ... وأشياعه فاشفع عسى أن تُشفَّعا[٧]

لئن كان ما حدثت حقًّا فما أرى ... كمثل الأولى أطريت في الناس أربعا

فقال تعال انظر فقلت وكيف لي ... أخاف مقامًا أن يشيع فيشنعا[٨]

فقال اكتفل ثم التثم وأت باغيًا ... فسلِّم ولا تُكثر بأن تتورَّعا[٩]

فإني سأخفي العين عنك فلا تُرى ... مخافة أن يفشو الحديث فيُسمعا

---

(١) هوى جميع: مجتمع ومجموع، ومثله حي جميع -والتصدع: التفرق.

(٢) صفق الشراب: حوله من إناء إلى إناء ليصفو -الرحيق: الخالص من الخمر -المشعشع: الممزوج، بخلاف الصرف وهو الذي لم يمزج، وبخلاف المقتول وهو الذي زاد مزاجه فذهبت سورته. قال حسان:

إن التي ناولتني فرددتها ... قتلت قتلت فهلتها لم تقتل

كلتاهما حلب العصير فعاطني ... بزجاجة أرخاهما للمفصل

(٣) الكاشحون: المبغضون -الصرم: القطيعة.

(٤) تنوعتن: فعل مبني للمجهول من النعت وهو الوصف -المودع: المصون.

(٥) الإطراء: المبالغة في الوصف.

(٦) أشراه فاستشرى: أغراه فهاج -موزع: مولع، وقد روي البيت بهما معًا كما ذكر القالي في أماليه.

(٧) أشياع الصبا هم إخوانه وأولياء ما فيه من النزق والجنون.

(٨) يشنع: يقبح.

(٩) اكتفل البعير وتكفله: إذا أخذ كساء فعقد طرفيه، ثم ألقى مقدمه على كاهله ومؤخره على عجزه، ثم ركب بين العقدة والسنام. واسم ذلك الكساء الكفل بالكسر -الباغي: الطالب.

فأقبلت أهوى مثل ما قال صاحبي ... لموعده أزجي قعودًا مُوَقَّعا[1]

فلما تواقفنا وسلمت أشرقت ... وجوهٌ زهاها الحسن أن تتقنَّعا[2]

تبالهن بالعِرفان لما عرفنني ... وقلن امرؤٌ باغٍ أضلَّ فأوضعا[3]

وقرَّبن أسباب الهوى لتميم ... يقيس ذراعًا كلما قِسْن إصبعا

فلما تنازعنا الأحاديث قلن لي ... أخفتَ علينا أن نُغرَّ ونخدَعا

لبالأمس أرسلنا بذلك خالدًا ... إليك وبيَّنَّا له الشأن أجمعا

فما جئتنا إلا على وفق موعدٍ ... على ملإٍ منَّا خرجنا لهُ معا

رأينا خلاءً من عيون ومجلسًا ... دميث الرُّبى سهل المحلة ممرعا[4]

وقلنا كريم نال وصل كرائم ... فحقَّ له في اليوم أن يتمتعا[5]

ولعمر في هند شعر كثير، منه هذه الرائية:

يا صاحبيَّ قِفا نستخبر الدارا ... أقوت وهاجت لنا بالنعف تذكارا[6]

تبدل الربع ممن كان يسكنهُ ... أُدم الظباء به يمشين أسطارا[1]

وقد أرى مرةً سِربًا به حسنًا ... مثل الجآذر لم يُمسسن أبكارا[2]

---

(١) أزجي: أسوق -بعير موقع: أنهكه الركوب فكثرت آثار الدبر عليه. وحافر موقع: وقعته الحجارة فقطعت سنابكه.

(٢) يريد أنها وجوه مدلة بجمالها فلا تتقنع فتستر شيئًا عن الناظرين إليها -وقد أشار إليَّ هذا المعنى الشماخ بن ضرار إذ قال يصف ناقته:

كأن ذراعيها ذراع مدلة ... أطارت من الحسن الرداء المحبرا

(٣) أضل بعيره: ذهب عنه -وفي رواية أخرى: أكل، من الكلال وهو الإعياء -أوضع: أسرع.

(٤) دميث: سهل -الربى جمع ربوة، وهي ما ارتفع من الأرض -ممرع: مخصب.

(٥) وردت قصة عمر مع هند في الجزء التاسع عشر من الأغاني، في أخبار خالد القسري من طريق آخر يختلف عما أثبتناه بعض الاختلاف.

(٦) أقوت: خلت.

فيهنَّ هندٌ وهندٌ لا شبيه لها ... فيمن أقام من الأحياء أو سارا

هيفاء مقبلةً عجزاء مُدبرةً ... تخالها في ثياب العَصب دينارا[٣]

تفترُّ عن ذي غُروبٍ طعمه ضَرَبٌ ... تخاله بردًا من مزنةٍ مارا[٤]

كأن عِقد وشاحيها على رشإٍ ... يقرو من الروض روض الحزن أثمارا[٥]

قامت تهادي وأترابٌ لها معها ... هوْنًا تَدافُعَ سيل الزُّل إذ مارا[٦]

يَمَّمن مُورقة الأفنان دانيةً ... وفي الخلاء فما يؤنسن ديارا[٧]

تقول ليت أبا الخطاب وافقنا ... كي نلهو اليوم أو ننشد أشعارا[٨]

فلم يَرعهنَّ إلا العيسُ طالعةً ... يحملن بالنَّعف رُكَّابًا وأكوارا[٩]

---

(١) أدم جمع أدماء، وهي التي أشرب لونها بياضًا -أسطار صفوف، مفردها سطر، قال ابن مقبل:

لهم ظعن سطر تخال زهاءها ... إذا ما حزاها الآل من ساعة نخلا

(٢) السرب -بالكسر-: القطيع من الظباء والنساء وغيرها -الجآذر جمع جؤذر، وهو ولد البقرة الوحشية.

(٣) العصب: ضرب من البرود يعصب غزله ثم يصبغ ثم يحاك.

(٤) غروب الأسنان ماؤها. وتقول: كأن غروب أسنانها وميض البرق -والضرب: العسل الأبيض - مار: سال.

(٥) يقرو: يتبع -والحزن: ما ارتفع من الأرض.

(٦) سيل الزل: هو الذي تزل منه الأقدام -ومار السيل: اندفع.

(٧) الأفنان: جمع فنن بالتحريك وهو الغصن -ما يؤنسن ديارا: لا يلقين أحدًا. ويقال: ما به داري وديار ودوري وديور: ليس فيه أحد.

(٨) وافقنا: صادفنا.

(٩) النعف ما انحدر من حزونة الجبل وارتفع من منحدر الوادي، وهو اسم لعدة أماكن منها نعف وداع، ونعف مياسر، ونعف سويقة، الذي يقول فيه الأحوص:

وما تركت أيام نعف سويقة ... لقلبك من سلماك صبرًا ولا عزما

ولم يعين ابن أبي ربيعة النعف الذي يقصده، والمرجح أنه يريد نعف محسر وهو موضع بين مكة وعرفة، فقد عينه بقوله من كلمة ثانية:

وفـــارسٌ بجمـــل البـــازي فقلـــن لهـــا ... هـــاهم أولاءِ ومـــا أكثـــرن إكثـــارا[1]

لمـــا وقفنـــا وعَنَّـــا ركائبنـــا ... بُـدِّلن بـالعُرف بعـد الرَّجـع إنكـارا[2]

قلـــن انزلـــوا نَعِمـــتْ دارٌ بقـــربكمُ ... أهـــلًا وســـهلًا بكـــم مـــن زائـــر زارا

لَمَّـــا ألَمَّـــت بأصـــحابي وقـــد هجعـــوا ... حـــبتُ وســـط رحـــال القـــوم عطـــارا

مـن طيـب نـشر التـي تامتـك إذ طرقـت ... ونفحـــة المـــسك والكـــافور إذ ثـــارا

فقلـــت مـــن ذا المحيـــي وانتبهـــت لـــهُ ... ومَـــن محـــدِّثنا هـــذا الـــذي زارا[3]

قالـــت محـــبٌّ رمـــاه الحـــب آونـــةً ... وهيَّجتـــه دواعـــي الحـــب إذ ثـــارا

حُـــلِّي إزارك سُـــكنَى غـــير صـــاغرة ... إن شـــئت واجـــزى محبًّـــا بلـــدي ســـارا

فقـــد تجـــشَّمتُ مـــن طـــول الـــسُّرى تعبًـــا ... وفي الزيـــارة قـــد أبلغـــت أعـــذارا

إن الكواكـــب لا يـــشبهن صـــورتها ... وهـــنَّ أســـوأ منهـــا بعـــدُ أخبـــارا[4]

وفيها أيضًا يقول:

هـــاج القـــريض الـــذِّكرُ ... لمـــا غـــدوا فـــابتكروا

ومقالها بالنعف نعف محسر ... لفتاتها هل تعرفين المعرضا

هذا الذي أعطى مواثق عهده ... حتى رضيت وقلت لي لن ينقضا

والأكوار: جمع كور، وهو رحل الناقة بأداته.

(١) البازي: ضرب من الصقور. وحمل البازي إشارة إلى الخروج للصيد.

(٢) عننا ركائبنا: حبسناها بالأعنة.

(٣) يلاحظ أن كلمة «مار» تكررت، وكذلك كلمة «زار» وهو عيب في الشعر يسمى الإيطاء، والعرب تستقبحه لدلالته على ضعف مادة الشاعر. ومن القدماء من أجازه للعرب وحرمه على المولدين، ومنهم من لا يستقبحه إلا إذا كثر. على أنه ينبغي أن نذكر ما أشرنا إليه من أن ابن أبي ربيعة كثيرًا ما يتسامح في ضوابط الشعر واللغة كأكثر شعراء العصر الأموي.

(٤) وما هي أخبار الكواكب يا سيدنا عمر!

عـــلى بغـــالٍ شُـــحجٍ قـــد ضـــمهنَّ الـــسفر[١]
فـــيهنَّ هنـــدٌ ليتنـــي مـــا عُمِّـــرت أُعَمَّـــر[٢]
حتـــى إذا مـــا جاءهـــا حَتـــفٌ أتـــاني القـــدر[٣]

ومن شعره في هند تلك الدالية التي استطال بها على الحزين الكناني، وقد أشرنا إلى ذلك في أخبار الثريا، والتي كانت فيما بعد سببًا لثورة الرشيد بالبرامكة، وتمزيقهم كل ممزق، حين دسَّ إليه خصومهم من غنَّاه:

ليـــت هنـــدًا أنجزتنـــا مـــا تعـــد وشـــفت أنفـــسنا ممـــا نجـــد
واســـتبدت مـــرة واحـــدةً إنـــما العـــاجز مـــن لا يـــستبد

فلنذكرها هنا كاملة لأهميتها في الأدب والتاريخ -قال:

زعموهـــا ســـألت جاراتِهـــا وتعـــرت ذات يـــوم تبـــترد[٤]
أكـــما ينعتنـــي تبـــصرنني عمـــركنَّ الله أم لا يتئـــد
فتـــضاحكن وقـــد قلـــن لهـــا حـــسنٌ في كـــل عـــين مـــن تـــود
حـــسدًا حُمِّلنـــه مـــن أجلهـــا وقـــديمًا كـــان في النـــاس الحـــسد

---

(١) شحج جمع شاحج. والشحاج: صوت البغل.

(٢) عمر: عاش طويلًا، وهو مبني للمجهول، ومنه: المعمرون.

(٣) يتمنى أن تكون حياته وفق حياة محبوبته حتى لا يقع في حيرة نصيب إذ يقول:

أهيم بدعد ما حييت فإن أمت فواحزنا من ذا يهيم بها بعدي

(٤) هذه رواية الديوان طبع ليبسك. وقد أثبتناه فيما سلف كما رواه الأغاني:

ولقد قالت لجارات لها ذات يوم وتعرت تبترد

وابترد الماء: صبه عليه باردًا، أو شربه ليبرد به كبده، والمراد المعنى الأول.

غـــادة تفـــتر عـــن أشـــنبها ... حـــين تجلـــوه أقـــاح أو بَـــرَد[١]

ولهـــا عينـــان في طـــرفيها ... حَـــوَرٌ منهـــا وفي الجيـــد غَيـــد[٢]

طَفْلَـــةٌ بـــاردة القـــيظ إذا ... معمعـــان الـــصيف أضـــحى يتقـــد[٣]

سُـــخنة المـــشتى لحـــافٌ للفتـــى ... تحـــت ليـــل حـــين يغـــشاه الـــصَّرَد[٤]

ولقـــد أذكـــر إذ قلـــت لهـــا ... ودمـــوعي فـــوق خـــدي تطـــرد

قلـــت مـــن أنـــت فقالـــت أنـــا مـــن ... شـــفَّه الوجـــد وأبـــلاه الكمـــد

نحـــن أهـــل الخيـــف مـــن أهـــل منـــى ... مـــا لمقتـــول قتلنـــاه قَـــوَد[٥]

قلـــت أهـــلًا أنـــتمُ بغيتنـــا ... فتـــمَّين فقالـــت أنـــا هنـــد

إنـــما ضُـــلِّل قلبـــي فـــاحتوى ... صـــعدةً في ســـابريٍّ تطـــرد[٦]

إنـــما أهلـــك جـــيران لنـــا ... إنـــما نحـــن وهـــم شيءٌ أحـــد

---

(١) الغادة: المرأة الناعمة اللينة -والأشنب: من الشنب بالتحريك، وهو برد ورقة وعذوبة في الأسنان - والأقاحي جمع الأقحوان، وهو زهر أبيض تشبه به الأسنان -والبرد بالتحريك حب الغمام.

(٢) الحور: شدة بياض العين مع شدة سوادها، أو هو اسودادها كلها كما في الظباء، ولا يكون في الإنسان وإنما يستعار له -والغيد: الميل، وغيد كفرح مالت عنقه ولانت أعطافه، والغيداء: المثنية ليّنًا. وتغايدت: تمايلت والأغيد من النبات الناعم المتثني. والإنسان الأغيد هو الذي يتهادى من النعومة واللين.

(٣) الطفل -بالفتح-: الرخص الناعم من كل شيء -القيظ: الحر، أو هو صميم الصيف. وقاظ اليوم: اشتد حره.

(٤) الصرد: البرد.

(٥) القود: القصاص.

(٦) الصعدة: القناة المستوية تنبت كذلك -والسابري: ثوب رقيق جيد -والشاعر يصف محبوبته بأنها قناة تتمايل في ثوب رقيق.

حـــدثوني أنهـــا لي نفثـــت عُقـــدًا حبـــذا تلـــك العقـــد[١]

كلـــما قلـــت متـــى ميعادنـــا ضـــحكت هنـــدٌ وقالـــت بعـــد غـــد

وبمناسبة ما كان من سعي عمر إلى أتراب هند، نذكر ما نقله صاحب الأغاني عن الحارث بن خالد إذ قال[٢]: بلغني أن الغريض خرج مع نسوة من أهل الشرف ليلًا إلى بعض المتحدثات من نواحي مكة وكانت ليلة مقمرة، فاشتقت إليهن وإلى مجالستهن، وإلى حديثهن، وخفت على نفسي لجناية كنت أُطالَب بها، وكان عمر مهيبًا معظمًا لا يقدم عليه سلطان ولا غيره، وكان مني قريبًا، فأتيته فقلت له: إن فلانة وفلانة وفلانة، حتى سميتهن كلهن، قد بعثنني، وهن يقرأن عليك السلام، وقد تشوقنا إليك في ليلتنا هذه لصوت أنشدناه فُوَيْسقك الغريض -وكان الغريض يغني هذا الصوت فيجيده، وكان ابن أبي ربيعة به معجبًا، وكان كثيرًا ما يسأل الغريض أن يغنيه، وهو:

أمـــسى بأســـماء هـــذا القلـــب معمـــودًا إذا أقـــول صـــحا يعتـــاده عِيـــدا[٣]

كـــأن أحـــور مـــن غـــزلان ذي بقـــر أهـــدى لهـــا شـــبه العينـــين والجِيـــدا[٤]

قامـــت تَـــراءى وقـــد جـــد الرحيـــل بنـــا لتنكـــأ القـــرح مـــن قلـــب قـــد اصـــطِيدا

---

(١) جاء في القرآن الاستعاذة {من شر النفاثات في العقد} وهن السواحر، والنفث في العقد يكون عند الرقية. والشاعر يحدثنا أنها سحرته وأنه بهذا السحر مغتبط جذلان، والنفث: النفخ، والنفاثة بالضم ما ينفث المصدور من فيه. وهذا من نفاثات فلان: من شعره، وكانوا يرون الشعر من نفث الشيطان.

(٢) ج٦ ص٨٥.

(٣) معمود: مقتول.

(٤) ذو بقر: واد بين أخيلة حمى الربذة.

كـــأنني يـــوم أُمـــسي لا تكلمنـــي ذو بغيـــة يبتغـــي مـــا لـــيس موجـــودًا[١]
أجـــرى عـــلى موعـــد منهـــا فتخلفنـــي فـــيما أمـــلُّ ومـــا تـــوفى المواعيـــدا
قـــد طـــال مَطـــلي لـــو أن اليـــأس ينفعنـــي أو أن أصـــادف مـــن تلقائهـــا جـــودا

فلما أخبرته الخبر قال: لقد أزعجتني في وقت كانت الدعة أحب فيه إليَّ، ولكن صوت الغريض، وحديث النسوة، ليس له مترك، ولا عنه محيص. فدعا بثيابه فلبسها وقال: امض! فمضينا نمشي العجل حتى قربنا منهن. فقال لي عمر: خَفِّض عليك مشيك. ففعلت، حتى وقفنا عليهن، وهن في أطيب حديث وأحسن مجلس. فسلمنا، فنهيبتنا وتخفرن منا، فقال الغريض: لا عليكن! هذا ابن أبي ربيعة والحارث بن خالد جاءا متشوِّقين إلى حديثكن وغنائي. فقالت فلانة: وعليك السلام يابن أبي ربيعة! والله ما تم مجلسنا إلا بك، اجلسا، فجلسنا غير بعيد، وأخذن عليهن جلابيبهن وتقنعن بأخرتهن وأقبلن علينا بوجوههن وقلن لعمر: كيف أحسست بنا وقد أخفينا أمرنا؟ فقال: هذا الفاسق جاءني برسالتكن، وكنت وقيذًا من علة وجدتها[٢]، فأسرعت الإجابة، ورجوت منكن على ذلك حسن الإثابة، فرددن عليه: قد وجب أجرك، ولم يخب سعيك، ووافق منا الحارث إرادة. فحدثهن بما قلت له من

---

(١) قال الوليد بن يزيد بن عبد الملك لأصحابه ذات ليلة: أي بيت قالته العرب أغزل؟ فقال بعضهم قول جميل:

يموت الهوى مني إذا ما لقيتها ويحيا إذا فارقتها فيعود

وقال آخر قول عمر بن أبي ربيعة:

كأنني حين أمسي لا تكلمني ذو بغية يبتغي ما ليس موجودا

فقال الوليد: حسبك والله بهذا!

(٢) الوقيذ كالموقوذ هو الشديد المرض المشرف على الهلاك.

له من قصة غناء الغريض، فقال النسوة: والله ما كان ذلك كذلك، ولقد نبهتنا على صوت حسن، يا غريض! هاته! فاندفع الغريض يغني ويقول:

أمسى بأسماء هذا القلب معمودًا ... إذا أقول صحا يعتاده عيدا

حتى أتى على الشعر كله، إلى آخره، فكل استحسنه، وأقبل عليَّ ابن أبي ربيعة فجزاني الخير، وكذلك النسوة، فلم نزل بأنعم ليلة وأطيبها حتى بدأ القمر يغيب، فقمنا جميعًا، وأخذ النسوة طريقًا، ونحن طريقًا، وأخذ الغريض معنا، وقال عمر في ذلك:

هل عند رسم برامةٍ خبرُ ... أم لا فأي الأشياء تنتظر

وقفت في رسمها أسائله ... والدمع مثل الجُمان مُنْحدر

قد ذكرتني الديار إذ درست ... والشوق مما يهيجه الذِّكرُ

لا أنسَ طول الحياة ما بقيت ... بطيبةٍ روضة لها شجر

مشى فتاة إليَّ تخبرني ... عنهم عشاءً ببعض ما ائتمروا

ومجلس النسوة الثلاث لدى ال ... خيمات حتى تبلج السَّحر

فيهن هند وأم ذِكرتها ... تلك التي لا يُرى لها خطر[1]

ثم انطلقنا وعندنا ولنا ... فيهن لو طال ليلنا وطر

وقولها للفتاة إذ أزف ال ... بين أغادٍ أم رائحٌ عمر

عجلان لم يقض بعض حاجته ... ألا تأني يومًا فينتظر

الله جارٌ له وإن نزحت ... دار به أو بدا له سفر

---

(١) المراد أنه ليس لها مثيل.

وإلى هنا نكتفي بما قدمنا للقارئ من أخبار الملاح، وإن يكن للحديث بقايا أطيب من عبث الشباب على ضِفاف النيل!